رؤية العوالم المهمّشة في رواية "محاولة عيش" لمحمد زفزاف

Seeing the marginalized worlds in" An attempt to live" by Muhammed Zafzaf

سعيد بومعزة *

جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)

Boumazasaid23@gmail.com

تاريخ الارسال: 2021-06-02	تاريخ التقييم: 2021-12-08	تاريخ القبول: 2021-12-30

الملخص:

تسعى دراستنا إلى فهم العلائقيّة التي تربط محكي رواية محاولة عيش بمفهوم رؤية العالم المجسّدة عبر مسارات فنيّة وتيميّة وخطابية، وقد لاحظنا أنّ هذه الرؤية تنوّعت وتوزّعت عبر مسارين هما: المقام(الأثر الفنّي والجمالي)، والسياق(التاريخي والإيديولوجي)، ونتج عن تقاطعهما إعادة الاعتبار للمجموعات الاجتماعيّة المهمّشة والمتدهورة، ذلك أنّ الروائي حاول فهم وتفسير طبيعة العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وهي علاقات يفرضها انحطاط القيم وغياب الوازع الاجتماعي والأخلاقي، ومن ثمّة فكل محاولة لبناء وعي ممكن، يقابلها وعي زائف سواء تعلّق الأمر بالمؤسسة الاجتماعيّة (الأسرة)، أو مؤسسات الدولة (الشرطة)، وهنا أمكننا طرح الإشكاليّة التالية: هل استطاع الروائي المماثلة بين البنى الاجتماعيّة باعتبارها مجموعة حمولات أيديولوجيّة وسوسيوثقافيّة والأبنية الأدبية بوصفها أنساقا لغوية دالّة؟، وقد تتبّعنا في دراستنا مقولة رؤية العالم(لوسيان غولدمان)؛ لمقاربة المسار العتباتي؛ أي العنوان(الوظائف والآثار)، ثمّ مسار المحكي (الشخوص الحكائية والفضاءات النصيّة وأبنية التماثل الوظيفي)، وأنهينا الدراسة بالوقوف على مضمرات المحكي الروائي(المسكوت عنه).

كلمات مفتاحية: ؛ انحطاط القيم؛ رؤية العالم ؛ رؤية أيديولوجيّة؛ رؤية فنيّة؛ مجتمع البراريك.

Abstract:

Our study seeks to understand the relational linking the narration of the novel "An attempt to live" with the concept of a vision of the world embodied through artistic, tempting, and rhetorical courses. Their intersection is the re-consideration of marginalized and degraded social groups, as the novelist tried to understand and explain the nature of social and economic relations, which are relationships imposed by the degradation of values, and the absence of social and moral norms, and from there, every attempt to build a possible awareness is matched by a false consciousness, regardless of the social institution (the family) Or state institutions (the police), Here we were possible to pose the following problem: Was the novelist could to similare between social structures and literary structures as significant linguistic structures? We were trace in this approach; vision of the world (Lucien Goldmann); in order to approach the title (functions and effects), then the narration path (narrative characters, textual spaces and structures of functional symmetry), and we ended the study by examining the implicits of narrtor (the unspoken) .

Keywords : the degradation of values ; vision of the world; ideological vision; artistic vision; "Bararik" community.

*المؤلف المراسل.

مقدمة:

استطاعت الرواية المغربية خلال فترة الثمانينيّات أن ترسم ملامح الرواية الواقعية الانتقادية من خلال تلّة من الروائيين الذين أعادوا تمثّل الواقع المغربي بجميع تمفصلاته الأيديولوجيّة والسوسيوثقافيّة، نذكر منهم: محمد برادة وعبد الله العروي والطاهر بن جلّون ومحمد شكري وإدريس الخوري ومحمد زفزاف، هذا الأخير حاول في بعض رواياته تسليط الضوء على الفئة المهمّشة في المغرب، وتصوير حياتهم اليوميّة، وسلوكاتهم، وأعمالهم، والوقوف على رؤية للعالم ترصد خطابهم المقصى والمغيّب، كما حاول الروائي رصد الفضاءات التي تشكّل عالم المجتمعات المهمّشة، وكيف تحوّل فعل التغييب إلى مبرّر اجتماعي؛ لفهم وتفسير تشكّل الآفات التي أدمنت –مع مرور الوقت-الخمر، والجنس، والمخدرات، من هذا المنظور يقدّم لنا محمد زفزاف روايته محاولة عيش؛ ليدين صناع القرار في المغرب، ويفضح مؤسّساتهم الرسمية.

1- مدخل نظري: رؤية العالم عند لوسيان غولدمان.

يعدّ لوسيان غولدمان (Lucien Goldmann)• أحد أعلام الفكر الاجتماعي في أوروبا لاسيما في دراساته المتعدّدة حول سوسيولوجيا الأدب، وذلك من خلال تبنّيه لمنهج نقدي يروم المزاوجة بين الأعمال الأدبيّة، والأبنية السيّاقيّة (السيّاسيّة والاجتماعية والثقافيّة)، فقد عدّها أنساقا "تهتمّ بالبنية الشكلية للأعمال الأدبية؛ لتكشف عن رؤية العالم"[1]، وتحيل على بنية أعمق وأشمل هي البنية الاجتماعية؛ أي التكوينية التي تتولّد من الطروحات السياقيّة، فالتكوينيّة "تهتمّ بدراسة الكيفية التي تتولّد بها هذه الأبنية العقلية الجماعية، والتي تعبّر عنها النصوص الأدبية"[2]، وقد صاغ هذا التصوّر على تخوم أفكار لوكاتشية؛ حيث عمد إلى تطوير جدلي لمفهوم الأبنية العقلية الهيغلية(نظرية الرواية) والماركسية(الضرورة الاقتصادية)، وكذا ما حققّه المؤلف النقدي لرونيه جيرار(René Girard) (1923-2015) كذب رومانطيقي وحقيقة روائية (1961) Mensonge romantique et Vérité romanesque، ضمن مفهوم حرية الاختيار، وقد عدّ غولدمان هذين الطرحين الأرضيّة النظرية التي بنى عليها تصوّره المنهجي، وذلك في كتابه الموسوم بـ Pour une

sociologie du roman(1964)؛ إذ يقول "قادتنا دراسة نظرية الرواية وكتاب جيرار إلى صياغة بعض الفرضيات الاجتماعية التي تبدو لنا خاصة ومميّزة"[3]، ومنها عمل على استثمار المقولات التجريدية القائمة على السخرية(Ironie)عند جورج لوكاتش(Georg Lukàcs) والفكاهة (Humour) عند روني جيرار وأسهب في تحليلهما، وانتهى إلى القول بأنّ هذه المقولات تشكّل القاعدة الجوهرية التي تتأسّس عليها الطروحات النظرية للبنوية التكوينية (la Structuralisme génetique)، كما أقام عليها منهجه النقدي الذي أعاد "استثمار جلّ المقاربات التي تبدو مكمّلة لها"[4]، وقد لخّصه في شكل ثنائيّات هي: الفهم والتفسير، والوعي الزائف والوعي الممكن، والبنية الدالة ورؤية العالم، منطلقا من فرضيّاته الأربعة التالية:

- قدرة المبدع على تمثّل تطلّعات المجموعة الاجتماعيّة التي يتكلّم باسمها، وفق مفهوم رؤية العالم، وهو بالتحديد مجموعة التطلّعات والمشاعر والآراء التي تضمّ أفراد مجموعة اجتماعية (إعادة طبقة اجتماعية) وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى فيولد تيّار حقيقي لدى مجموعة اجتماعيّة يحقّقون جميعا هذا الوعي، بطريقة واعية ومنسجمة "انطلاقا من مصالحها الطبقية، وانطلاقا من وعيها الطبقي "[5]، ويمكنها" أن تنظّم كليّة المجتمع طبقا لمصالحها"[6]، فرؤية العالم رؤية شمولية تتّخذ من مضامينها سالفة الذكر موضوعا لها، وتتحدّد من خلالها مسارات الأبنية الذهنية؛ لأنّها تشتغل عبر" مجموعة التطلّعات والمشاعر والآراء التي تضمّ أفراد مجموعة اجتماعية(...)، وتجعلهم في تعارض مع المجموعات الأخرى"[7]، بحيث تحاول تغيير وضعها التاريخي من خلال فرض أفكارها وتطلّعاتها، ولا يكون ذلك إلاّ بتبنّي صراع إيديولوجي وتاريخي وحتّى حضاري مع الآخر.

- جدلية العلاقة بين الوعي الجمعي والأعمال الأدبية. فالوعي الجمعي هو كذلك نتاج تفاعل رهيب بين الأبنية الأدبية والبنى الذهنية؛ إذ أنّه لا يلغي المفهوم الفرويدي ولا المفهوم البياجي، ولكنّه مفهوم يحاول أن يتكامل معهما داخل أفق لغوي متعالٍ، فالوعي الجمعي حسب غولدمان يلخّص وعيين متناقضين ومتكاملين، ويميّز بينهما من خلال إبراز العلاقة بين الوعي القائم (الزائف) والوعي الممكن، وما قد يصل إليه من نتائج تبيّن الحد الأقصى من الانسجام بين الطبقة الاجتماعية الصاعدة والواقع، فالوعي الممكن حسب غولدمان هو

ما يمكن أن تفعله طبقة اجتماعية من خلال رغبتها في تغيير إيديولوجيا سابقة، وهو كما يرى الباحث الجزائري مشري بن خليفة "ما يمكن أن تفعله طبقة اجتماعية ما بعد أن تتعرض لمتغيرات مختلفة دون أن تفقد طابعها الطبقي"[8]

- العلاقة بين الخصوصيّة الجمعية للوعي الممكن والخصوصيّة الفردية للإبداع، وفي هذا السيّاق يرى الكاتب الفرنسي جان دوفينو (Jean Duvignaud)(1921-2007) في المؤلف الجماعي الموسوم بالبنيوية التكوينية والنقد الأدبي بأنّ :" الـ "أفكر" تظهر و تخفي في نفس الوقت هذا "النحن"الذي لا تقدم عنه حصيلة "الأنوات" الخاصة به إلاّ صورة واهنة رغم أنّ المجمع لا يمكن أن يوجد على الإطلاق بدون تلك الأنوات"[9]، وهو تصّور يلخّص رؤية غولدمان للعلاقة المنسجمة بين الفرد والجماعة من جهة، والتحوّلات السوسيوثقافية والأعمال الإبداعية من جهة أخرى، فقد تطرّق غولدمان في هذه الفرضية إلى عدّة مفاهيم أصّلت منهجه وثبّتت دعائمه، كالبنية الدالة(Structure signifiante)؛ حيث يرى بأنّها "قضية تتعلّق بالانسجام الداخلي للنص، وهو يفترض أن نتعامل حرفيا مع النص ولاشيء غير النص، نبحث داخله عن البنية الكليّة"[10]، وذلك وفق المعايير الكلية والتحوّلات والتنظيم الذاتي -على حد قول العالم النفساني السويسري جان بياجيه (Jean Piaget)(1896-1980)؛ حيث تتحوّل هذه البنية من حالة سكونية إلى حالة حركية دينامية(Dynamique)، يحدّدها "مجموع الخطابات المرافقة للنص من منظور ممارسة اجتماعيّة"[11]

- مستويات تمثّل الوعي عند المجموعات الاجتماعيّة المضطهدة وطريقة اشتغالها، ويصرّ غولدمان على مفهومي الفهم والتفسير في كتابه الإله الخفي(Le dieu caché)(1955) من خلال النظرة المأساوية لخواطر باسكال ومسرح راسين؛ حيث قارب غولدمان في كتابه سالف الذكر ظهور الجنسينيّة في أوروبا، وتوصّل إلى أنّ فهم أفكار باسكال هو تفسير لظهور الجنسينّية، على أن تكون هذه الرؤية محمّلة بشتى المضامين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية...الخ.

1 - العنوان باعتباره محطّة عبور نحو العوالم المزيّفة :

يحيل عنوان محاولة عيش• إلى بناء صورة مخصوصة عن مجتمع دون الإنسانيّة في المغرب-حسب تصوّر الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو(Michel Foucault)(1926-1984)، مجتمعا منحطا –بالمفهوم الاجتماعي- يقبع في آخر مرتبة من السلم الاجتماعي المغربي، فالعنوان – من هذا المنظور- يروم الكشف والفضح والإدانة، ليس بمفهوم القانون الجنائي؛ لأنّ هؤلاء تحت القانون بأشواط، وإنّما بمفهوم القانون الإنساني، من هذه النقطة اشتغل العنوان على نقل مشهد مأساوي لمجموعة اجتماعيّة مقهورة، لازلت تؤمن بأنّ الهدف من وجودها يتعدّى مدركاتها ومستوى وعيها، فهو منحصر –حسب وجهة نظرها- في كسب لقمة العيش، والنوم تحت سقف لا يهم إن كان من تبن أو قصدير أو صفيح، كما لا يهمّ الوسيلة المتّبعة للوصول إلى الغاية المرجوّة، ويبدو العنوان -رغم بساطته الشكليّة والدلاليّة- أعمق من أن ينحصر في مستويات دنيا من الإدراك الاجتماعي المتفاوت والطبقي، ذلك أنّ هذه المستويات أنتجت بطريقة غيّب فيها الوعي بشكل مفضوح، وهنا تتجسّد مقصديّة العنوان وإستراتيجيّاته، من خلال جعل الجانب الشكلي دالا على الجانب التيمي، وواصفا للجانب المضاميني" شارحة لمضمون نصّها متعالقة معه بملفوظات موجزة في أوّلها، لتحيل عليه برجوعها إليه"[12]، ونحن هنا إزاء وظيفتين للعنوان تحدّدان رؤيته وخطّته؛ لجذب القارئ، وظيفة وصفيّة تشتغل على الجانب الإنساني له، فهي بذلك تنتظر منه نوعا من التضامن الاجتماعي المفقود داخل المحكي، لتتحوّل الوظيفة الوصفيّة إلى وظيفة مرجعيّة هدفها تحفيز القارئ على تشغيل مرجعياته(التاريخيّة والاجتماعيّة)، علّه يعثر داخل هذه الذاكرة ما يعاضد به موقف الكاتب من جهة، ومقصدّية العنوان من جهة أخرى، بخاصة إذا ارتبط بآليتي الفهم والتأويل(فهم طبيعة هذه المجموعات الاجتماعيّة وتأويل تصرفاتها وسلوكاتها)، فالعنوان من حيث هو طاقة ترميزيّة (إيجاز لفظي وكثافة دلاليّة) يعدّ هويّة المحكي؛ لأنّه يختصر مضامينه ومرجعياته الأيديولوجيّة والتاريخيّة، هكذا يصنع العنوان مسارا واحدا لأيديولوجيّة مقيتة منحطّة ومغيبّة، وهو بذلك يحقّق وظيفة تعيينيّة؛

أي أنّه يحمل مقصديّة يتوخّى الروائي من خلالها توجيه آليتي الفهم والتفسير نحو مجموعة اجتماعيّة مخصوصة دون غيرها(مجتمع البراريك)، كما ساعدت البنية المعجميّة واللغوية في تمرير رسائل أيديولوجيّة يهيمن عليها خطاب الحاجة والعوز، والعيش من أجل لقمة العيش، فهي تحمل من المخاطرة(محاولة) الشيء الكثير للوصول إلى هذا المبتغى(العيش)، وقد صوّر السارد ذلك بواقعيّة سوداء في الغابة أثناء موسم جني البلوط؛ حيث يلجأ بعض سكان البراريك إلى استعمال العنف(القتل) من أجل الحصول على البلوط"حيث يكون الجوع فإنّ قتل الإنسان مثل قتل ذبابة "[13]، فالمحاولة في عرف هذه المجموعات الاجتماعيّة تفيد الخرق والتجاوز، فهي تحاول أن تصنع لنفسها عالما خاصا بها؛ يتحوّل فيه العيش إلى بوتقة تلتقي بداخلها كل الطروحات القبلية والبعدية مثل: الاعتداء والسرقة والاغتصاب والقتل.

يعدّ التشكيل اللغوي (النحوي) للعنوان بمثابة انعكاس للوضع المجتمعي الخاص بهذه المجموعة الاجتماعيّة داخل وعي الكاتب، وهو إدراك يفسّره حالة الاندماج التام والكامل له مع هذه الطبقة، ما خلق فضاء مسيّجا بجدار الصمت والتغييب، تسبح بداخله نماذج بشرية من العالم السفلي يزداد نكرانها كلّما زاد انحطاطها، لهذا يبرّر العنوان حالة تذويت الأنا وتذويبها في الآخر من أجل فهم طبيعة تفكيرهم وحديثهم وتصرفاتهم دون اللجوء إلى طابع الرومانسيّة المزيّفة، وتقديم الواقع كما هو بمرارته وزيفه، نماذج بشريّة تبحث عن قوتها من"نفايات القاعدة الأمريكيّة، فيتسارع إليها كل ساكني البراريك ليلتقطوا الأجبان المدوّدة، وبقايا المصبّرات القذرة، وقطع الخبز المبلّلة بسوائل لا يدري أحد ما هي، ويلتهمون كلّ ذلك بنهم كبير"[14]، ومجتمع نسوي يتاجر بجسده للوصول إلى حالة الاكتفاء الاجتماعي، وهو ما يحيلنا على التبرير البيولوجي دون غيره من التبريرات (الوعي والحرية والرفاهية)، ونقصد بالتبرير البيولوجي الوضع الغريزي الذي يحتّم على الكائنات البشريّة إشباع حاجاتها البيولوجيّة من أكل وشرب وتناسل، وبهذا يضع العنوان مجموعة اجتماعيّة منحطّة داخل عالم الكائنات البشرية هي الأقرب للحيوانيّة، تروم إشباع حاجياتها البيولوجيّة دون التفكير في مستقبلها، فيتحوّل العنوان من الحمولة البيولوجيّة إلى مجموعة حمولات تحرّكها الوظيفة الأيديولوجيّة؛ كون مجتمع البراريك فضاءً اجتماعيّا يعكس أيديولوجيّة الأقلّيات المضطهدة في المغرب- في هذا الصدد لا أتكلّم عن هذه الأقلّيات من منظور سياسي أو طائفي

أو عرقي، وإنّما من منظور اجتماعي يكفل لها حقوقها الدستوريّة-، كما يدخل العنوان في علاقة تفاعليّة مع القارئ، فهو من جنس العناوين التي تستفزّ القارئ- رغم التركيبة المعجمية البسيطة والواضحة-، وتدخله في عالمها؛ لتجعله في حال استعداد لما يمكن أن يكشفه المحكي من أسرار وألغاز داخل هذه الفضاءات المعتمة؛ إذ يمكن أن ينسف مشروع القارئ في دخول المحكي؛ لأنّه أقام جسر تواصل مباشر مع النهايات السردية، فمحاولة عيش قدّمت للقارئ ما يمكن توقّعه، فالعنوان لا يحيل على تنامي وتطوّر المحكي نحو الحلول التي تجعل الجميع سعيدا، فنحن لسنا أمام طرح يعيد تمثّل الواقع برومانسيّة ساذجة، كما لا يجعل الروائي يرتمي في أحضان هذه المجموعات الاجتماعيّة بذاتية مفرطة، وإنّما بواقعيّة تشرّح الوضع ولا تقدّم له حلولا. مغرقة في الوصف الاجتماعي السوداوي، والخطاب الحواري المتأزّم، فمحاولة عيش -في الأخير- هو رؤية للعالم تتميّز بانحطاط القيم تورّط السلطة وتزيح اللثام عن نظام مؤسّساتي استحلّ أعراض مجتمع البرارك ودماءهم، وكشف عن الوجه الآخر للنظام البوليسي المستبدّ في المغرب، وينظر إليهم في "صورة عوائق ينبغي عليها أن تقهرها على الدوام كي تفرض رؤية عن العالم موافقة لتلك النظرية[15] التي ترى بضرورة عزل المهمّشين إمّا لدواع سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، فتتحوّل هذه المجموعات من حالة العيش دون الإنسانيّة إلى حالة الموت البطيء، وسط عالم لم يعد يحتفي كثيرا بالقيم، بقدر احتفائه بالسلطة والمال والنفوذ.

3- الاشتغال المكاني بين مطرقة الحاجة وسندان التسلّط:

تجري أحداث الرواية بمدينة القنيطرة• المغربيّة، يتحرّك المحكي بداخلها ويتطوّر ويتأزّم دون انفراج، ففضاء القنيطرة اشتغل بطريقة سلبيّة في الرواية، مدينة بلا هويّة اجتماعيّة ولا هوّية أخلاقيّة، وكر للرذيلة والآفات الاجتماعيّة، تطلّ على البحر وهذا ما جعلها قبلة للسيّاح(السياحة الجنسيّة) ومركزا للقاعدة العسكرية الأمريكيّة، ويبدو أنّ هذا الفضاء يشتهي جذب الموبقات، أو كأنّه يؤثّث الأمكنة(منطقة البراريك والقاعدة العسكرية والملاهي والبيوت المشبوهة)، فمدينة القنيطرة تعدّ في الرواية ملتقى الفساد الاجتماعي والمؤسّساتي.

3-1- فضاء البراريك: فضاء المجتمعات المهمّشة:

يعدّ فضاء البراريك في الرواية فضاء معتما بسوداويّة مقيتة؛ لأنّه يخبر عن وضع مأساوي يعيشه أهلها، فالفضاء يفضح الطبقية في المغرب، ويدينها بشدّة، وقد حاول السارد نقل صورة اجتماعية وأسرية لهذا الفضاء الذي تقطنه عائلات معوزّة، ويتميّز حيّ البراريك ببنائه الهشّ المكوّن من صفائح القصدير" امتداد شاسع من البراريك القصديريّة (...) كل هذه الآلاف من الناس هي في خدمة سكان المدينة، منهم الحفّارون والخادمات واللصوص ومنهم الصبّاغون والجيّارون والبائعون المتحوّلون والمتسّولون وكل شيء"[16]، وقد تمّ ربط هذا الفضاء بمهن بسيطة وأخرى متطرّفة؛ ليزيد من سوداوية الوضع المجتمعي، هكذا يتحوّل فضاء البراريك إلى معادل موضوعي للزوال بفعل المتغيّرات الاجتماعيّة والاقتصاديّة في البلاد، كما عبّر فضاء البراريك عن حالة أسريّة متدنّية صوّرتها علاقات الأمومة والأبوّة(علاقة حميد بأبويه) التي تحوّلت مع مرور المحكي إلى ما يشبه الانتقام• (شعور ضمني بالضغينة اتجاه الوالدين بسبب إرغامه على العمل في سن مبكّرة وزواجه بمن لا يحب، فهي علاقة يغلب عليها الجانب المادي.

صوّر فضاء البراريك الحياة اليوميّة لمجموعة بشرية لا يهّمها سوى تحصيل قوت يومها، فهي بذلك تحاول أن تخلق فضاء موازيا لفضاء العوالم المجاورة، فلا نجد مؤشّرات سردية عن وجود مدارس لتعليم الأطفال، إنّه فضاء منزوع الهويّة، أقصد بالهوّية المنظومة الفكرية التي تنتج النخبة من الأساتذة والأطباء والمهندسين، وقد حلّ محلّهم"الحفّارون والخادمات واللصوص ومنهم الصبّاغون والجيّارون والبائعون المتحوّلون والمتسّولون"[17]، فالسارد ينقل صورة سوداويّة عن المجتمعات التي لا تقرأ، وكيف يتحوّل مركب الوعي الموجب لديها إلى مركب وعي سالب، هذا الأخير قد يسهم -بدرجات قد تزيد وتنقص- في خلق آفات اجتماعيّة، تزيد مع مرور الوقت من الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي، كما صوّر السارد –من خلال فضاء البراريك- يوميات أهلها؛ ليقف على سلوكاتهم المزيّفة، وينقل صورة واقعية وموضوعيّة عن الارتباك الحاصل في حياتهم إذ "تتحقّق النقلة المكانيّة من فصل لآخر، من

الميناء إلى البراريك القصديريّة حيث بيت حميد، من الفضاء الذي يتحرّك فيه حميد الشوارع، الحانات، والمقاهي إلى بيت حميد وعلاقاته مع أبيه وأمّه"[18]، ولا أدّل على ذلك من التصوير الأسري الذي بيّن تراجع دور الأسرة داخل هذا الفضاء في لعب دورها الاجتماعي والمتمثّل في تحفيز الأبناء على الدراسة والتعلّم، وقد تحوّلت هذه الإستراتيجيّة إلى خطّة مضادّة قامت بتحفيزهم(الأبناء)على العمل في سن مبكّرة، فالمحكي –من هذا المنظور- صوّر حالة انعدام الوعي المفضي إلى انحطاط القيم، وقد تجلّى ذلك في:

أ-**ظاهرة السبّ والشتم**: وتعدّ هذه الخاصيّة لازمة في أقوالهم وتصرّفاتهم، وتعدّ حمولة سوسيولسانية تربط بين" النص الأدبي وسياقه الاجتماعي"[19]، فهي تنبأ عن انحطاط أخلاقي بسبب غياب الأسرة من جهة، وغياب المؤسسة التربويّة من جهة أخرى"يا مسخوط الله والعبد..."[20] ،"كل يا بغل كتفاك مثل كتفا بغل"[21]" متى يتدبّر هذا الحمار أمر نفسه"[22]، وقد تحوّلت هذه الألفاظ النابيّة عند حميد إلى روتين يومي، من خلال تعامله مع أمّه وأبيه، وأصبحت جزءا من حياتهم اليوميّة، ما يجعلنا نؤكّد على أنّ مجتمع البراريك يمتلك لغة للتواصل فيما بينهم، ومعجما خليطا بين كلام النازحين من القرى إلى ضواحي المدن وتخومها، وكلاما هجينا يجمع بين مستواهم الفكري المحدود المشبّع باللغة الساقطة، ويعدّ ذلك انعكاسا لخطاب الرفض والعنف والتمرّد(حالة من الاستياء الاجتماعي الذي يتحوّل بطريقة لاواعية إلى استياء لفظي)

ب - **ظاهرة عمالة الأطفال**: أشار السارد إلى هذه النقطة وأسهب في طرحها، وكذا تبريرها، فحميد كغيره من أقرانه استطاع منذ صغره أن يقتحم عالم الشغل(بيع الجرائد)، ونحن هنا لا ننقص من قيمة العمل، وإنّما ندين اشتغال حميد في سن كان من المفروض أن يكون فيه في المدرسة، يدرس ويتعلّم؛ ليفيد نفسه ووطنه، ولكن كان للوعي الأسري رأي آخر حيث أنّ بطالة الأب، جعلت الأم في حالة اجتماعيّة متردّية، ممّا فرض عليها إقناع حميد بالعمل؛ ليعيل بيتهم" لو لم يكن ذلك الحشّاش أبي، لكنت قد أنهيت دراستي، وأصبحت موظّفا مع الدولة، هو الذي أوقفني عن الدراسة، ودفعني إلى هذه المهنة القذرة"[23]، فغياب الوعي عند الأب شجّعه على تشغيل حميد في سنّ مبكّرة، ويوضّح المقطع السردي أمل حميد

في التعلّم لو منحت له الفرصة، وقد أدّى انقطاع حميد عن الدراسة واشتغاله بائعا للجرائد إلى وقوعه في مآزق عديدة، بسبب الأماكن التي كان يرتادها خلال فترة عمله؛ لكونها بؤر للعنف والجريمة (البار والملاهي الليليّة والسفن الأمريكيّة).

ج- **ظاهرة الصراع والشجار:** من الطبيعي جدّا أن ترتبك المجموعات الاجتماعيّة التي تعيش واقعا اجتماعيّا مزريا، وتدخل في حالات صراع وشجار، ففضاء البراريك وبسبب انعدام الوازع الأخلاقي تحوّل إلى ما يشبه حلبة صراع بين الأسر، وقد تنشب هذه الصراعات لأسباب مختلفة، كشجار الأب حسن مع زوجته؛ بسبب المال"قطّب الحسن جبينه، طقطقت أسنانه، واحتكّت أضراسه ببعضها، دفع الباب بركلة وخرج"[24]، أو شجار الأم مع حميد عندما شكّت في علاقته بفتاة، وخوفها من فشل زواجه بفيطونة؛ لأنّ ذلك سيذهب بهيبتها وقيمتها أمام جاراتها.

2-3 - فضاء الشارع: فضاء المحنة والشتيمة:

يعدّ فضاء الشارع فضاء مفتوحا على وظيفة حميد وعلاقاته مع الآخرين، صوّر لنا انغلاق أفق أفرادها وانحصار وعيهم داخل دائرة السب والشتم والإهانة، ولكن ما يهمّنا في هذا الفضاء هو محاولة اكتشاف تشكّل الوعي عند حميد، بعد فشل الأسرة في تجسيده، ويقدّم لنا فضاء الشارع خطاب الازدراء والاحتقار المشبع بدلالات الإهانة التي كان يوجّهها الآخرون إلى حميد، سواء أكانوا حراس البواخر أم أعوان الشرطة...، بحيث نلمس اشتغال ألفاظ دالة على التمييز الطبقي" تحدّث يا ولد ال....."[25]،" ماذا تفعل هنا أيّها اللقيط"[26]، "يا حمار إلى أين أنت ذاهب"[27]، "تفعلها وتفعل أكثر من ذلك يا كلب"[28]، "اسكت يا كلب"[29]، ويتجلّى بشكل واضح تواتر خطابات الاحتقار والإهانة الدالّة على تقزيم مجتمع البراريك نحو: اللقيط والحمار والكلب و...الخ، وقد أدّت هذه الملفوظات باعتبارها حقولا دالّة على الحيوانيّة إلى تشكّل مركّب الوعي الناقص عند حميد، بخاصّة بعد تعرّفه على غنّو، فحالة النكران الأسري لذات حميد، والإقصاء الاجتماعي من لدن المجتمع، جعلا منه شخصيّة غير قادرة على المواجهة وتقرير مصيرها، لهذا نجد أنّ المحكي يتداعي بطريقة يظهر فيها حميد مستسلما لقدره المحتوم، فالإهمال الأسري الداخلي والتهميش الاجتماعي الخارجي حوّلاه إلى

شخصيّة مهزومة، تنزع نحو اشتغال الوعي الناقص الذي ستظهر تبعاته فيما بعد، من خلال دخول حميد عالم الخمر والمخدرات والرذيلة.

3-3 - **الحانات والملاهي الليليّة: فضاء الخمر والجنس.**

يمكن عدّها فضاءً للفسق والمجون والدعارة، وبذلك يمتدّ وصف الفضاءات المنحطّة من المستوى الاجتماعي إلى المستوى الأخلاقي، وهي فضاءات مغلقة تكشف عن نفسها في الليل، وقد صوّرها السارد تصويرا موضوعيا، حيث وصف روّادها وهم من الأمريكيين الذين يقطنون القاعدة العسكريّة، وكذا فتيات الهوى المغربيات اللواتي يبحثن عن أموال الأجانب مقابل جسدهنّ، فكثيرا ما كان الوضع ينتهي بشجار الأمريكيين من أجل مومس بفعل تأثير الخمر، وقد اشتغل فضاء الحانات بطريقتين هما:

3-3-1- فضاء لشرب الخمر والمتعة الجنسيّة : "يتدفّق على البارات الجنود الأمريكان والملاّحون من مختلف الجنسيّات، تسكر المغربيات والأجنبيّات(...)، تحمل ورقة مهنة محترفة"[30]. تميّز فضاء الحانات والملاهي بتوفّره على الأرضيّة القانونيّة التي تتيح للمغربيات ممارسة هذا الأفعال بطريقة شرعية، فالمرأة التي تحمل بطاقة مهنيّة كتب عليها محترفة، يحقّ لها ممارسة البغاء دون إشكال، فهو بذلك يفضح السلطات العليا بسبب تقنينها للدعارة والبغاء، كما أنّه فضاء للعنف والشجار؛ إذ كثيرا ما كان يشهد هذا الفضاء شجارا بالأيدي وكذا زجاجات الخمر من أجل المومسات المغربيات اللواتي كنّ يتوافدن من"سيدي يحي وسوق الأربعاء أو جمعة المكرن، أو سيدي علال التازيّ"[31]، فارتياد حميد هذه الأمكنة وهو في سن صغيرة، جعله منفتحا على عالم الأنثى بتجلّياته الجسديّة(غنّو)، وشاهد عيان على كل ما كان يحدث داخلها (البارات والملاهي) من احتساء للخمور وملاطفة النساء.

3-3-2- فضاء للشجار، وإثبات الذكورة من أجل الأنثى: ويمكن أن نذكر على سبيل المثال الشجار الذي وقع في الحانة بين المغربي والأمريكي من أجل الظفر بجسد غنّو، وكيف تدخّل حميد لإنقاذها باعتبارها ابنة بلده وتحوّلها فيما بعد إلى خليلة. أعتقد أنّ هذا العنصر مرتبط أكثر بالرجال بسبب ارتباطه بكبرياء الجسد ظاهريّا، وكبرياء الجنس ضمنيّا، لهذا فكلّ الصراعات التي حدثت داخل الملاهي والبارات كانت بسبب المرأة، فهو يمثّل علامة

لغوية بلا هويّة أيديولوجيّة، فضاء يعيش حاضره دون مستقبله؛ بحيث يتحوّل الأفراد بداخله إلى كائنات حيوّانيّة تحرّكها غريزة الجنس، ويتحوّل معه جسد المرأة إلى سلعة تباع وتشترى لمن يدفع أكثر.

4-3 - بيت غنّو: ومركّب الوعي الناقص (حميد):

هو فضاء مرتبط بتصوير العلاقة الجنسيّة بين حميد وغنّو، فضاء مغلق يثير الشهية، وقد قدّم السارد وصفا معاضدا لبنى هذا الفضاء، يشكّله سلوك العهر من خلال ما هو موجود في بيت غنّو من خمر ومخدّرات، ويماثله سلوك هذه الأخيرة مع حميد(علاقة جنسيّة)، كما يعدّ بيت غنّو إسقاطا لانحطاط قيم المجتمع النسوي، وحالة التردّي الأخلاقي بسبب هروبها من بيتها بالعوامرة(الريف) إلى المدينة، وكرائها منزلا تمارس فيه البغاء والرذيلة، وهو مشهد يعكس انتشار البيوت المشبوهة في المغرب" في الغرفة كان دائما هناك زجاجات نبيذ وأنصاف الزجاجات"[32]، وتعدّ غرفة غنّو امتدادا لفضاء المتعة والجنس، فهي انعكاس للانحلال الأخلاقي لدى المرأة المغربية؛ بسبب الفقر والحاجة والعوز، ولكن غنّو كانت من أسرة ميسورة، وهذا يفتح المجال أمام مسألة في غاية الأهميّة، وهي مسألة الحريّات الفردية، والتي يمكن ردّها إلى عامل السياحة في المغرب، وأخصّ بالذكر السياحة الجنسيّة التي جعلت المرأة المغربية تتمرّد على العادات والتقاليد والمرجعيّة الدينيّة؛ لتثبت هذا الزعم والاعتقاد، رغم أنّ الروائي لم يطرح هذه الفكرة بالطريقة التي تبدو لنا واضحة، ولكن طريقة هروب غنّو من بيتها بعد خطيئة الزنا، وامتهانها مهنة البغي والدعارة؛ لكسب قوتها يعاضدان هذا الطرح.

4- الخطاب الأيديولوجي من مركب الوعي السالب إلى انحطاط القيم:

تندرج رواية محاولة عيش ضمن تيّار الرواية الواقعيّة الانتقاديّة التي تحاول تصوير الواقع كما هو دون أن تقدّم حلولا له، وقد سئل ذات مرّة محمد زفزاف عن سبب عزوفه عن تقديم حلول لشخوصه الحكائيّة، بعد أن أثقلها بالمآسي والآلام، فكان ردّه صريحا بأنّ دوره كروائي هو نقل الواقع كما هو، وليس البحث عن حلول له، موّرطا –بطريقة ضمنيّة- السلطة المغربية في تأجيج الوضع المجتمعي والعمل على خلق فضاء اجتماعي طبقي "يقوم على نظام خاص، وليس حالة تستدعي العاطفة الإنسانيّة"[33]، وهو ما تجسّد في رواية

محاولة عيش؛ إذ يسعى أفرادها إلى تأمين لقمة العيش بطريقة استعباديّة، متناسين دورهم كأفراد مؤسسة اجتماعيّة تتحلّى بالحصانة الدستورية، وقد حاول السارد –عبر شخصيّة حميد- تبنّي مفهوم الوعي بين الإدراك والممانعة•، ذلك أنّ الوعي خاصيّة جمعيّة يعمل الفرد على إدراكه وتبنّي طروحاته.

يمثّل حميد نقطة مفصليّة في فهم طبيعة تغيّر مؤشر الوعي لدى أفراد مجتمع البراريك، لهذا نجد أنّ الروائي راهن على فئة الأطفال المقبلين على مرحلة الشباب؛ إذ تعدّ هذه المرحلة مهمّة في اكتساب الوعي وأدلجته اجتماعيّا، فتطوّر شخصيّة حميد تبدو طبيعيّة ومنطقيّة إلى حد كبير بسبب التنشئة الأسرية التي أهملت فيه التكوين التربوي والمعرفي، والتنشئة الاجتماعيّة التي أهملت فيه الخصوصيّة الإنسانيّة، وهذا ما يجعلنا كقراء نضع موضوع –أعتقد أنّه مفصلي في فهم كتابات محمد زفراف- السرد السيري التخييلي كمرجعيّة قرائيّة نستند عليها لفهم عوالم الروائي، بخاصة التقاطعات الكبرى بينه وبين حميد(المكان والحالة الاجتماعيّة)، ونحن من هذا المنبر لا نعدّها سيرة صرفة؛ بل انعكاسا تخييليّا لطفولة الروائي أين يتجلّى مظهر المهمّش "موصولا بالانتماء الطبقي والوضع الاجتماعي والأسري، وهو شعور تتقاسمه الذات مع آخرين"[34]، فالروائي عاش طفولة صعبة، بخاصة بعد وفاة والده، الشيء الذي جعله يتعرّف على الشارع باكرا، فإذا عدنا إلى حميد وجدنا أنّ تنشئته الأسرية تفتقد لرابط الأمومة والأبوّة، فحضور الأب يكاد يكون منعدما، فداخل مجتمع البراريك تنتفى كل المرجعيّات وتهدم كل الأدوار الاجتماعيّة، وقد لعب الأب دورا سلبيا في هذه التنشئة، فقد اقتصر حضوره في المطالبة بالمال من أجل شراء التبغ، مهملا دوره الأسري، وقد انتقلت هذه المسؤوليّة من الأب حسن إلى الابن حميد، وهنا يبدأ حميد مرحلة الخروج إلى الشارع واحتكاكه بالناس- احتكاكا سلبيا- حيث تعرّض إلى مختلف أنواع الإهانة، والاحتقار، سواء من طرف الأفراد أو مدير الجريدة وحتّى أصحاب الشرطة، ويمثّل خروج حميد إلى الشارع للعمل نقطة مفصليّة في حياته، وتحوّل كبير في توجّهه الأيديولوجي، بخاصة بعد تعرّفه على غنّو، حيث أصبح يبيت خارج منزله العائلي(بيت غنّو)، ومدمن مخدّرات وسكّير، يقيم علاقة جسدّية مع غنّو، كما أنّ طريقة تعامله مع أمّه تنبئ

عن سلوك خاطئ، لهذا نجد أنّ المحكي يتحرّك وفق مبدأ السببيّة، وكذلك مبدأ الحتميّة، حيث تتطوّر شخصيّة حميد وفق الأحداث التي يتعرّض لها، وسلوكه نابع من خلال وعيه الخاطئ بهذه الأحداث.

يمكن القول بأنّ الإهمال الأسري الذي تعرّض له حميد–بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- كان سببا في انحراف سلوكه الاجتماعي واكتسابه لمركّب الوعي الناقص الذي يظهر في مجمل تصرّفاته – بعد تعرّفه على غنّو- وقد أدّى هذا الوعي المزيّف إلى انحطاط قيمه الأخلاقيّة والاجتماعيّة، وتحوّله بفعل ذلك إلى وجه آخر من أوجه الفساد والآفات الاجتماعيّة في حيّ البراريك ومدينة القنيطرة.

5 - **علاقات التماثل الوظيفي في رواية محاولة عيش:**

حاول الروائي من خلال بنية الشخوص الحكائيّة وفضاءاتها، تقديم وضعية اجتماعيّة واقتصادية مخصوصة عن مجموعة اجتماعيّة تقطن البرارك، وقد أدّى ذلك بالراوي إلى استنساخ فضاءات تماثل الشخوص الحكائيّة دلاليّا ووظيفيّا، ويمكننا ربط علاقات التماثل في الرواية من خلال ربط عناصرها الفنيّة بعضها ببعض، فمجتمع البراريك مجتمع مهمّش ومقصى اجتماعيّا، ويتجلّى ذلك في الطرح الاجتماعي (فقر وجهل وأميّة...الخ)، ويقابله الطرح الوظيفي(باعة متجوّلون وخادمات وبنّاؤون وصبّاغون)، ثمّ إنّ هاتين التيميتين أدّتا إلى خلق بنية وظيفيّة دالّة على حقل الآفات الاجتماعيّة (السرقة والجريمة وتناول المخدّرات وشرب الخمر والدّعارة)، وقد أدّى ذلك إلى خلق انسجام وظيفي بين الشخوص الحكائيّة ومرجعيّاتها ووظائفها، وتحديد دورها الاجتماعي، باعتبارها نماذج بشرية خلقت لتؤدّي هذه الأدوار المغلّفة بغلاف الخنوع والاستسلام، فالرواية من حيث هي الممكن الاجتماعي تنظر إلى حميد"ككائن تاريخي عليه أن يفكّ عنه قيد تلك القدرية الذي يشدّه إلى قانون التماثل والزوال" [35]

تتجلّى ملامح الرواية الطبيعيّة في كون العلاقات الاجتماعيّة المبنيّة على خلفيّات أيديولوجيّة أدّت بالضرورة عند محمّد زفزاف إلى تجلّى نفس التيمات الدالّة، ومثال ذلك:

–حميد+ فقر=بيع الجرائد +مركّب الوعي السالب=تناول الخمر+المخدّرات +الجنس.

-غنّو+خطيئة الزنا=هروب من البيت+مركّب الوعي السالب=خمر+مخدّرات+دعارة.

-فيطونة+الانغلاق الاجتماعي= تمرّد خفيّ+مركّب الوعي الناقص=فتاة غير شريفة ليلة زفافها.

-الأب حسن+ مرض+ وعي سلبي=بطالة+مكوث بالبيت+ التدخين= شجار مع حميد والأم.

-الشرطي+غياب الرقابة المؤسّساتيّة = نفوذ وتسلّط+ انعدام الوازع الأخلاقي والإنساني= ابتزاز+رشوة+ظلم+اغتصاب.

يقدّم لنا محمد زفزاف بعض المؤشّرات والقرائن الاجتماعيّة الدّالة على الممكن، وبذلك فالرواية تأخذ خصوصيّاتها التيميّة من الواقعيّة الانتقاديّة؛ حيث تقدّم واقعا ولا تمنح حلولا، وهي بذلك تفضح المؤسّسات الرسمية للبلد.

حاولت بنية التماثل الوظيفي في الرواية التركيز على أجندة أيديولوجيّة معدّة سلفا، أخذت شكلا مأساويّا، ورؤية ضبابيّة لما يمكن أن يكون، وذلك من خلال الربط بين الشخصيّة الحكائية وبعدها الاجتماعي، فهي تضعنا أمام برنامج سردي-ليس بالمفهوم السيميائي، بل من منظور تيماتي- تتحرّك بداخله الشخوص الحكائيّة كما تتحرّك بيادق الشطرنج، فكل شخصيّة تحتّل رقعة خاصّة بها لا يمكن تجاوزها، لهذا دائما ما تطرح الروايات ذات البعد الواقعي فكرة تقييد حركيّة الشخوص؛ لأنّها تحتل مواقع سرديّة تكون فيها غير قادرة على التطوّر والاختراق.

6 - مظاهر المسكوت عنه في رواية محاولة عيش:

قدّم الروائي بعض مظاهر المسكوت عنه باعتباره تجلّيا خطابيا يتشكّل في ثنايا المحكي من خلال ربطه بالحمولة التاريخيّة والسوسيوثقافيّة، ومن بين مظاهر المسكوت عنه:

- تموقع القاعدة العسكرية الأمريكيّة بالمغرب الأقصى(القنيطرة)، هذا الموقع الذي يحمل خلفيّات سياسيّة بالدرجة الأولى، نحو الصراع الجزائري المغربي. ربّما تقيّد الروائي برؤيته الواقعيّة حتّم عليه من باب الموضوعيّة، طرح جميع القضايا ذات البعد الاجتماعي

والاقتصادي وكذا السياسي، مادام هذه القواعد تقام لدواع إنسانيّة(الظاهر)، ودواع سياسيّة سياديّة(ضمنيّة)، ومادام المسكوت عنه في النص يلمّح ولا يصرّح، فسنحاول تقصّى هذا التلميح لربط القاعدة العسكريّة الأمريكيّة بحرب الرمال (1963) التي وقعت بين الجزائر والمغرب غداة استقلال الجزائر، وإعلان المغرب تندوف منطقة تابعة لها إقليميّا؛ حيث تلقت المغرب آنذاك دعما لوجيستيّا من الولايات المتّحدة الأمريكيّة وفرنسا، وقد استغلّ الروائي ذلك؛ ليكشف ممارسات الأمريكيين في حق الشعب المغربي المضطهد، بخاصة في حق أفراد القنيطرة وما جاورها، من اعتداءات واغتصاب وتخويف."لقد حشوا رؤوسكم بأفكار فارغة، يجب أن تأكل حتّى لا تظل نحيفا مثل معزة"[36]، ويمثّل هذا المقطع السردي مظهرا من مظاهر الوجود الأجنبي(الأمريكي) في المغرب، وتوغّله الاجتماعي؛ ليساوم الفرد المغربي في دينه، ففي ظل انعدام الرقابة وغياب الدور الرئيسي للشرطة، تحوّلت الفئة الشّابة إلى فئران تجارب، مهدّدة في أمنها ودينها وهويّتها.

– الفساد المؤسّساتي في المغرب، وقد تجلّى ذلك من خلال حضور الشرطة وارتباطها بأعمال الفساد الاجتماعي والأخلاقي "يجب أن ترى وتسكت، أن تسمع وتسكت"[37] ، هكذا تتعامل الشرطة مع سكان البراريك" تناول المقدّم خمسة عشر درهما، طالب بأكثر من ذلك"[38]، وقد استفحلت ظاهرة الرشوة بين أوساط الشرطة، وبلغت ذروتها ضد سكان البراريك، بحيث استطاع الحسن إقناع المقدّم بأخذ رشوة مقابل السماح له ببناء براكة لابنه حميد؛ لكي يتزوج" لقد دفع الحسن رشوة ثانيّة بواسطة البقال"[39]، فإلى جانب الرشوة، فضحت الرواية مظاهر الاضطهاد الممارس ضد سكان البراريك، فنجد الشرطي يهين حميد، ويصفه بأقبح الصفات(الكلب، اللقيط، النذل،...الخ)؛ لأنّه ينتمي إلى سكان العالم السفلي، كما نقرأ انتهاك الشرطة لجسد المغربيات باسم القانون"قيل لحميد إنّ رجال الشرطة يعتقلوهنّ إمّا لابتزازهنّ أو لاغتصابهنّ(...)، إذا كانت المرأة تعرف كيف تدفع من جيبها أو من جسدها"[40]. قدّم جهاز الشرطة في رواية محاولة عيش أنموذجا سيئا عن المؤسّسة الأمنية في المغرب، وبالضبط في مدينة القنيطرة؛ فهي مؤسّسة تحرّكها المصلحة الشخصّية والغريزة الجنسيّة.

– شكّل حضور المرأة في الرواية محطّة فارقة في فهم تردّي الوضع المجتمعي للبراريك بصفة خاصة، والمدن المغربية بصفة عامّة، فقد صوّرها السارد امرأة متسلّطة تقوم مقام الرجل وتحاول أن تلعب دوره متجاهلة الدور المنوط بها، والمتمثّل في تربية الأولاد تربية سليمة، فأم حميد تلاعبت بمستقبل ابنها حميد(زواجه بفيطونة) "والأخرى تغمز بقدمها، لكنّها ذات ردفين وسمينة، ويبدو أنّها ستكون مطيعة لها"[41]، وهذا دليل على استهتار الأم بمستقبل ابنها الأسري.كما صوّر السارد المرأة وسيلة للمتعة الجسديّة، تمتهن بيع الجسد من أجل بضع دراهم مغربية أو دولارات أمريكيّة، وتعدّ الشخصيّة الحكائيّة غنّو الأنموذج الواقعي لهذه التصوير" هذه الليلة سيكون عندي شغل كثير، ككل سبت دائما"[42]، تمثّل غنّو صورة للفتاة المغيّب وعيها، فهي ضحيّة أسرتها ومجتمعها الريفي المحافظ، هذا الوعي الذي كان بالإمكان تداركه في قرية العوامرة، ولكن تجاوز الخطأ بالخطأ جعلها -في الأخير- تقع في فخ الدعارة، فغنّو تعكس شريحة نسوية واسعة في المغرب، غيّب وعيهنّ، فتجلّى جسدّهنّ، هكذا تغدو المرأة –في ظل الانغلاق الأسري وانعدام الوعي الاجتماعي- عرضة للمساومة وانتهاك الشرف(فيطونة)، فالمرأة عند محمّد زفزاف أنموذج للامبالاة، وعدم الإحساس بالمسؤوليّة الاجتماعيّة والأخلاقيّة الملقاة على عاتقها، لهذا وجدنا أنّ تغييب دور المرأة (الجانب الإيجابي)، أدّى إلى انتشار الآفات الاجتماعيّة، ويمكن إيعاز هذا التغييب إلى واقعية المحكي الذي صوّر المرأة كما هي، لا كما يجب أن تكون.

عود على بدء

أفرزت قراءتنا لرواية محاولة عيش مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

– يمثّل عنوان محاولة عيش أيقونة دلاليّة موجزة، استطاع الروائي أن يؤطّره بما يخدم مشروعة الهادف إلى تسليط الضوء على مجتمع البراريك، فهذا الأخير، أثبت سرديا بأنّه يحاول أن يعيش من أجل لقمة عيشه، لا أن يحيا من أجل بناء وعيه، وبين هذا وذاك مساحة سرديّة فاصلة أثبت فيها الروائي أنّ أكبر عدو للمجتمع هو زوال الوعي، ففي غيابه تنحصر متطلّبات مجتمع البراريك في دائرة الإشباع البيولوجي الغريزي، بعيدا عن كل إدراك بوجودهم التاريخي والسوسيوثقافي.

– البناء المجتمعي الهشّ بفعل غياب دور الأسرة، أو بفعل حالة الفقر والعوز والحرمان بناء معرّض للتفكّك والانهيار، فكل الشخوص الحكائيّة في الرواية كانت نهايتها متوقّعة، نهاية مأساويّة لحميد وغنّو وفيطونة، وكذا لأسرة غنّو وأسرة فيطونة، فما يهمّ في الأخير هو مدى قدرة حميد على تجاوز وضعيته الاجتماعيّة ومركّب وعيه الناقص، وقد كلّلت جهوده بالفشل بعد فشل زواجه من فيطونة، وهذا يعني عودته وبقوّة إلى غنّو، وبذلك استمراره في شرب الخمر وممارسة الرذيلة معها، فاستمرار مركب الوعي الناقص عند حميد كفيل باستمرار مظاهر الاستبداد الطبقي والاضطهاد الإنساني من طرف البنى الفوقية.

– تماثل جميع فضاءات الرواية في التعبير على الوضعية المأساوية لسكان البراريك، فقد روّجت للعنف والفساد والرذيلة، وأنتجت قتلة ومجرمين وسكّيرين وعاهرات، فحالة الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي جعلت مجتمع البراريك خارج دائرة الإدراك، وبالتالي فالمطالبة بالحقوق لا يمكنها –بشتى الوسائل- أن تكون في مستواه(الإدراك).

– يدين المحكي المؤسّسة الأمنية في القنيطرة التي قصّرت في أداء مهامها، وانزاحت عن شعارها؛ لتبني شعارا مزيّفا باسم المال والجنس والنفوذ، وقد أدّى ذلك إلى دخول منطقة البرارك وما جاورها في حالة من العبثيّة الاجتماعيّة التي لا تحفل بالقيم بقدر احتفائها بالمال، فالمناطق المغربية ذات الطابع السياحي، كثيرا ما يلجأ مسؤولوها إلى إقصاء وتهميش الطبقات الاجتماعيّة الدنيا؛ حفاظا على المظهر السيادي لها، من منطلق أنّها قادرة على استيعاب السياح الأجانب وحمايتهم من مختلف السلوكات التي تهدّد أمنهم وسلامتهم.

– تجلّى حضور المرأة في الرواية بعيدا عن دورها الحقيقي المنوط بها، والمتمثّل في إعداد مجتمع متماسك أخلاقيا ودينيّا واجتماعيّا وحضاريا، ولاحظنا كيف أنّ تغييب هذا الدور خلق نوعا من الارتباك الاجتماعي، كان ضحيّته حميد وغنّو وفيطونة، لذلك تعدّ الرواية فرصة لإعادة الاعتبار لهذه الفئة المهمّشة من المجتمع، بما يسمح لها بأداء دورها الأسري على أكمل وجه.

قائمة المصادر والمراجع.

1 . بسطاويسي، رمضان، (1991)، علم الجمال عند لوكاتش، مطابع الهيئة المصرية للكتاب،مصر.

2 . بلعابد، عبد الحق، (2015)، فتوحات روائية، قراءة جديدة لمنجز روائي عربي متجدد، ابن النديم للنشر والتوزيع، المحمّديّة، الجزائر، دار الروافد الثقافيّة –ناشرون، بيروت، لبنان.

3 . بن خليفة، مشري،(2001) ،سلطة النص، منشورات الاختلاف، الجزائر.

4 . بورديو، بيير، (2007)، الرمز والسلطة، تر: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.

5 . بيبان، منية قارة، (2019)، صورة الذات في مرايا السرد، دار آفاق برسبيكتيف للنشر، تونس.

6 . التازي، محمّد عز الدين، (1985)، السرد في روايات محمّد زفزاف، دار النشر المغربيّة، المغرب.

7 . جان، دوفينو، ومجموعة من الباحثين، (1986)،البنوية التكوينية والنقد الأدبي،تر: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان.

8 . جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، (1982)، تر: حنّا الشاعر، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2.

9 . زفزاف، محمّد، (2011)، محاولة عيش، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب.

10 . محمد عطيّة، محمود، (2010)، محمّد زفزاف وأقنعة الرواية، مجلّة نزوى، مؤسّسة عمان للصحافة والنشر والإعلان، مسقط، عمان، ع64.

11 - Claude Duchet (1979) ; La Sociocritique ; Nathan ; Paris.

12 - Lucien Goldmann(1964) ; Pour une sociologie du roman, Tel gallimard, Paris .

13 - Lucien Goldmann(1959) ; Le Dieu Caché ; Tel gallimard, Paris ; 1964

14 - Paul Dirks(2000) ; Sociologie de la littérature ; Armand Colin ; Paris .

15 - Pierre V. Zima(2000) ; Manuel De Sociocritique ; L'Harmattan ; 1ed ; Paris .

الاحالات:

• - لوسيان غولدمان من مواليد بوخارست سنة1913،حاصل على عدّة شهادات (الدراسات العليا في القانون،دراسات عليا في الأدب، ودكتوراه في الأدب)سنة 1956، عيّن مدير المعهد العلمي للدراسات العليا، درّس مادتي السوسيولوجيا والفلسفة، أصبح مديرا لمعهد سوسيولوجيا الأدب ببروكسل سنة 1961، ومن أهمّ أعماله: الإله الخفي1956،من أجل سوسيولوجيا الرواية1964، والماركسية والعلوم الإنسانية 1970، ولوكاتش وهيدغر 1961، توفي سنة 1970.

[1] - رمضان بسطاويسي: علم الجمال عند لوكاتش، مطابع الهيئة المصرية للكتاب،مصر،ط1، 1991، ص249

[2] - المرجع نفسه: ص249.

[3] - Lucien Goldmann. pour une sosiologie du roman . Tel gallimard, Paris ; 1964 .p22

[4] -Claude Duchet ; La Sociocritique ; Nathan ; Paris ;1979 .p03

[5] - جورج لوكاتش: التاريخ والوعي الطبقي، تر: حنّا الشاعر، دار الأندلس، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1982، ص54

[6] -المرجع نفسه : ص54.

[7]- Lucien Goldmann ; Le Dieu Caché ; Tel gallimard, Paris ; 1959.p26.

[8] - مشري بن خليفة: سلطة النص، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2001، ص131.

[9] - جان دوفينو ومجموعة من الباحثين-البنوية التكوينية والنقد الأدبي،ترجمة محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية ،ط2 ،1986،ص96/95

[10] - Lucien Goldmann.pour une sosiologie du roman.p.62

[11]- Paul Dirks ; sociologie de la littérature ; armand colin ; paris ;2000. P85.

• - صدرت رواية محاولة عيش لأوّل مرّة سنة 1980، بمجلّة أقلام العراقيّة (نصوص مستقلّة)، ضمن عدد خاص بالأدب المغربي المعاصر، وقد أعيد طباعتها أكثر من مرّة نذكر منها: طبعة الدار العربية للكتاب، سنة 1985، وطبعة منشورات الجمل، سنة2006.

[12]- عبد الحق بلعابد: فتوحات روائية، قراءة جديدة لمنجز روائي عربي متجدد، ابن النديم للنشر والتوزيع، المحمّديّة، الجزائر، دار الروافد الثقافيّة –ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص57.

[13]- محمّد زفزاف: محاولة عيش، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، المغرب، ط3، 2011، ص14.

[14]- الرواية: ص58.

[15]- بيير بورديو: الرمز والسلطة، تر: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2007، ص70.

• - عدّ الكاتب المغربي إدريس خوري رواية محاولة عيش نصّا توثيقيّا يعيد الاعتبار لمدينة القنيطرة المغربية المغيّبة، فقد رأى أنّ محمد زفزاف في رواياته أعاد الاعتبار لها "بظهور زفزاف، الغرباوي الأصل كشاعر ثمّ قاص وروائي، بدأت القنيطرة تتسّر إلينا عبر شخوصها.. إن فضاء القنيطرة ليس فضاء غنيّا متعدّدا بأزمنته وأمكنته وشخوصه، فهو بدوي بربري، فاسي يهودي أمريكي خليط من الأحياء والأمكنة الرمزية المستقرّة في الذاكرة.

محاولة التعقيب على ملاحظة الروائي إدريس الخوري، استطاع محمد زفزاف أن يعيد الاعتبار لمدينته المغيّبة القنيطرة في روايته محاولة عيش، ولكن هل هو حضور إبداعي (سردي) يعيد الاعتبار لمدينته ، أم هو حضور يدين ويفضح هذه المدينة التي كانت سببا في عيشه طفولة مضطهدة، جعلته ينتقل إلى الدار البيضاء؛ لأنّني –وأنا أقرأ الرواية- أحسّ بحقد دفين للروائي اتجاه هذه المدينة- وأنا لا أفضح علاقة الروائي بمدينة القنيطرة- بل أقول ما تلمّسته من الرواية، فضاءات سوداء مليئة يحرّكها خطاب الكراهيّة والعنف، فضاءات تدعو إلى الفساد الأخلاقي، فضاءات مفكّكة أسريا واجتماعيّا، تعدّ الهجنة العرقية فيها بمثابة محرّض على الجريمة والاغتصاب والرذيلة.

[16]- الرواية: ص17.

• - أعتقد أنّ دراسة الرواية من منظور نفسي سواء السياقي(فرويد أو يونغ) أو النسقي النصاني(شارل مورون)، كفيل بكشف عدة قضايا مرتبطة بالعلاقات الاجتماعيّة (الأسريّة)، وفضاءات التعليم والتسليّة، وكذا العلاقات الاقتصاديّة (قانون العمل)، وكذا العلاقات الإنسانيّة المبنيّة على الاستغلال والابتزاز المعنوي والجسدي .

[17]- الرواية:ص17.

[18]- محمّد عز الدين التازي: السرد في روايات محمّد زفزاف، دار النشر المغربيّة، المغرب، 1985، 108.

[19] -Pierre V. Zima ; Manuel De Sociocritique ; L'Harmattan ; Paris ; 1ed ; 2000 ; P125

[20] - الرواية:25.

[21]- الرواية:26

[22] - الرواية:26.

[23]- الرواية:ص85.

[24]- الرواية:ص89.

[25]- الرواية:ص12.

[26] - الرواية:ص13.

[27]- الرواية:ص23.

[28]- الرواية:ص34.

[29] - الرواية:ص48.

[30]- الرواية :ص33/32.

[31]- الرواية: ص33.

[32]- الرواية:ص83.

[33]- محمد عطيّة محمود: محمّد زفزاف وأقنعة الرواية، مجلّة نزوى، مؤسّسة عمان للصحافة والنشر والإعلان، مسقط، عمان، ع64، أكتوبر، 2010، ص270.

• - أقصد بالممانعة هو عدم قدرة الفرد المهمّش على استيعاب اللحظة التاريخيّة التي يعيشها، فهو يحاول أن يربط بين الأشياء ربطا حسيّا معتمدا في ذلك على الآنيّة ، في حين أنّ فكرة التغيير المرتبطة بالوعي الممكن قد تأخذ سنوات وسنوات لتتحقّق، فالممانعة فعل إدراك مزيّف ضدّ كل تحوّل يؤدّي إلى تغيير التركيبة الاجتماعيّة، وقد لا يكون ذلك في صالح أفراد المجتمعات الهشّة.

[34]- منية قارة بيبان: صورة الذات في مرايا السرد، دار آفاق برسبيكتيف للنشر، تونس،ط1، 2019، ص128.

[35]- محمّد معتصم : المتخيّل المختلف عند محمّد زفزاف، ص65.

[36]- الرواية:ص37.

[37]- الرواية:ص34.

[38]- الرواية:ص62.

[39]- الرواية:ص88.

[40]- الرواية:ص33.

[41]- الرواية:ص69.

[42]- الرواية:ص87.